خليل حاوي و«الآداب»

الدكتور سهيل ادريس

أستطيع أن أؤكّد أنَّ «خليل حاوي» كان ركناً متيناً من أركان مجلّة «الآداب» منذ إنشائها، بالرغم من أنه لم ينشر فيها قصيدة له إلاَّ في العدد ١٢ من عامها الأوَّل ١٩٥٣، أي بعد عام تقريباً من صدورها. وكانت هذه القصيدة عمودية بعنوان «إشراق» تحمل نكهة صوفيّة ربّما كانت مستمدّة من فلسفة «الإشراق».

وقد واكب خليل «الآداب» زُهاء ربع قرن، فكنَّا نتزاور ونتشاور، ونترافق في السَّفر لتمثيل لبنان في المؤتمرات الأدبيّة. وكان يربطه بالمجلّة، بعد خروجه من الحزب السوريّ القوميّ، توجّه قوميّ عربيّ يقوده «حلم الانبعاث» الذي كان حلمه الأكبر والأعظم. وقد نشرت له «الآداب» (العدد الثاني، شباط ١٩٥٤) قصيدة بعنوان «غيبة الحلم» أهداها «إلى كلّ من عانى الهزيمة بعد الكفاح، ولكنّه لم يستسلم، لأنَّ الكفاح في روحه ودمه».

وفي هذا السياق من الحلم ومن الشوق إلى الانبعاث، تأتي قصيدته «في المطهر» (العدد السادس، حزيران ١٩٥٤) التي ينهيها بهذا النداء:

ربِّ متى أصفو وأخلُص جَوْهراً
ومتى، متى ربِّ، أخلِّي المَطْهرا
وأثور في الآفاق حقّاً مُشهرا
أبني الحياة ذُرى وأحياها ذُرى
في يقظتي الكبرى وفي خَدَرِ الكرى؟

وفي مسيرة خليل حاوي المبشّرة بالانبعاث، يُرسل إلى «الآداب» من جامعة كيمبردج التي قصدها للتخصّص، قصيدة هامّة بعنوان «آسيا بعد الجليد»، تعبّر عن معاناة الموت والبعث بما هي أزمة ذاتٍ وحضارة وظاهرة كونيّة. وفيها يفيد، كما قدَّم لها، من أسطورة الإلّه تمُّوز وما ترمز إليه من غلبة الحياة والخصب على الموت والجفاف، ويفيد كذلك من أسطورة العنقاء التي تموت ثمّ يلتهب رمادها فتعود ثانية إلى الحياة:

إن يكن، ربّاه، لا يُحيي عروق الميّتينا
غيرُ نارٍ تلِدُ العنقاء
نارٍ تتغذّى من رماد الموت فينا
فلْنعانِ من جحيم النارِ
ما يمنحنا البعث اليقينا(...)
يا إلّه الخصب، يا تمُّوز، يا شمسَ الحصيد
بارِكِ الأرضَ التي تعطي رجالاً
أقوياء الصّلب، نَسْلاً لا يبيد
يَرِثون الأرض للدّهر الأبيد
بارِكِ النَّسْل العتيد!

وفي قصيدة «حبّ وجلجلة» (العدد الثالث، شباط ١٩٥٧) يهتف الشاعر:

أتحدّى محنة الصلب
أعاني الموت في حبّ الحياة!

وربّما كانت قصيدة «الجسر» (العدد الخامس، أيّار ١٩٥٧) أهمّ قصائد تلك المرحلة من تطوّر شعر حاوي وشاعريته.

***

أمَّا قصيدة «السندباد في رحلته الثامنة» (العدد ٦ ـ ٨ عام ١٩٥٨) فقد أثارت لدى نشرها اهتمام النقّاد والقرَّاء على أنَّها قفزة جديدة في تطوُّر خليل حاوي موضوعاً وشكلاً. وقد وضعت «الآداب» لهذه القصيدة الهامش التالي:

«كان في نيّته ألاّ ينزعج عن مجلسه في بغداد بعد رحلته السابعة. غير أنَّه سمع ذات يوم عن بحّارة غامروا في دنيا لم يعرفها من قبل، فكان أن عصف به الحنين إلى الإبحار مرّةً ثامنة. وممَّا يُحكى عن السندباد في رحلته هذه أنَّه راح يُبحر في دنيا ذاته، فكان يقع هنا وهناك على أكداس من الأمتعة العتيقة والمفاهيم الرّثَّة من بضاعة عصره، رمى بها جميعاً في البحر ولم يأسف على خسارة. تعرّى حتى

بلغ بالعري إلى جوهر فطرته، ثمَّ عاد يحمل إلينا كنزاً لا شبيه له بين الكنوز التي اقتنصها في رحلاته السالفة. والقصيدة التي نقدّمها هنا رصيدٌ لما عاناه عبر الزمن في نهوضه من دهاليز ذاته، إلى أن عاين إشراقة الانبعاث وتمّ له اليقين».

ومع قصيدة «لعازر عام ١٩٦٢» تبدأ مرحلة التشاؤم في موقف خليل حاوي. وهو نفسه يوضّح (العدد الثاني، شباط ١٩٧٠) أنّها «اعتمدت الرمز بشخصيّة مستمدّة من التاريخ: لعازر أسطورة أخذتها من الإنجيل وحوّرتها. إنّ لعازر يشتهي الموت ويخاف أن يبعثه صديقُهُ الناصريّ. يشتهي الموت لأنّه بطل صارع في سبيل القيم، حتى أدّى به الصراع إلى هزائم متلاحقة، فكانت رغبته في الموت. ثمّ يُبعث ويصبح رجلاً آخر. لم يعد بطل القيم، بل أصبح يحقد على الحياة. وهو يجسّد العقائديّ الذي تتوالى عليه الهزائم، فيتحوّل عن العقيدة المثاليّة إلى ما يناقضها... وربّما أصبح عميلاً في النهاية!»

وربّما كانت قصيدة «ضباب وبروق» (العدد الثالث، آذار ١٩٧٢) خير قصيدة تعبّر عن ذلك التشاؤم الذي يبلغ تخوم اليأس من جرّاء «اعتياد الهزائم»:

ضجّة المقهى
ضباب التبغ
مصباح وأشباح يغشّيها الضباب
ويغشّي رعشة في شفتي السفلى
ويغشّي صمت وجه ووجومه
أفرخ البومُ
ومات النِّسر
في قلبي الذي اعتادَ الهزيمه!

إنّ أرض الانبعاث التي مجّدها حاوي في **نهر الرَّماد** لم تعد غير سرح للباطل، ولم تثمر سوى «صمت التراب» بينما حلّ محلّ اخضرارها التمّوزي «ظلّ غراب»!

* * *

هذا وقد خاض خليل حاوي برفقة «الآداب» معركة الشعر العربي الحديث. وقد بدأنا هذه المعركة أوائل عام ١٩٦١، فتصدّينا للدعوة الهجينة التي تحملها فئة من الكتّاب اللبنانيّين (العدد الثاني، شباط ١٩٦١) ترى أنّ «لبنان من أمم البحر المتوسّط، وأنّ حضارته جزء من حضارتها. أمّا الحضارة العربيّة فتقع خارج هذا الإطار، وربّما لا يعترف أصحاب هذه الدعوة بوجود حضارة عربيّة، وقد يعدّون العروبة مرادفة للجهل والصحراء والبداوة... ولأغراض لا يمكن أن تكون خالصة لوجه الأدب، يقوم على نشر هذه الدعوة فئة تحاول أن تدّعي أنّها وحدها تمثّل «الشعر الحديث»، وما ذلك إلاّ لأنّها تتنكّر للتراث العربي وللحياة العربيّة الحاضرة، وهذا وحده، في رأيها يضعها في مجرى الحضارة الغربيّة. وفي شعر هذه الفئة نرى شتماً صفيقاً للحضارة العربيّة... وقد بلغت الصفاقة والرعونة بأحد أفرادها أن قال «إنّي أبول على هذه الحضارة ـ الحضارة العربيّة!...»

ونتحدّث بعد ذلك عن مجلّة هذه الفئة، مجلّة «شعر»، فنذكر أنّ بعض الشعراء القوميّين العرب الذين كانوا يسهمون فيها قد انكشفت لهم مقاصدها فانقطعوا عنها. وكنّا نقصد بالذات خليل حاوي الذي أدلى لجريدة «لسان الحال» بحديث في هذا الموضوع ننقل بعض فقراته:

س ـ يعتقد البعض أنّ الشعر في لبنان، وفي حقبة ما بين الحربين، قد شقّ آفاقاً جديدة، فما رأيك في ذلك؟

ج ـ أرى أنّ الشعر في لبنان، وفي هذه الحقبة بالذات، لم يكتشف جديداً ولم يأت بخلق أصيل، بل كان هائماً ضائعاً يتوكّأ حيناً على القديم الجامد وحيناً على الغريب المجلوب. فإنّك تلمح وراء كلّ قصيدة شبح شاعر غربيّ حديث أو عربيّ قديم. والشاعر الأصيل يضرب جذوراً عميقة في حضارته وفي الحضارة العالميّة، يمتصّ الغذاء الصالح فيحيله إلى مادّة ذاتيّة. والآفة الكبرى التي ضربت شعراء تلك الحقبة تعود إلى أخذهم باللغة العربيّة أداة مجرّدة للتعبير، وتنكّرهم لها من حيث هي لغة تحمل حضارة خاصّة. ومن ثمّ كان أن جرفتهم الحضارة الغربيّة وامتصّهم الأدب الغربيّ ومسح معالم شخصيّتهم. ومع ذلك فإنّ افتتانهم بالأدب الغربيّ لم يدفعهم إلى التعمُّق في خصائصه الجوهريّة واستيعاب تراثه المتكامل العريق، وإنّما وقفوا منه عند طوره الأخير وظواهره العرضيّة(...) لذلك جاء شعرهم غريباً عن واقعنا... فشعر سعيد عقل مثلاً لا يعدو الأسلوب التقليديّ الذي يستهدف صياغة المعاني الذهنيّة والفِكَر المجرّدة صياغة زخرف وتجميل. أمّا البيت عنده فما يزال وحدة الشعر، والبناء في القصيدة ما يزال هندسة لفظيّة، وقوالب برّاقة جامدة نفتقد فيها نشاط الحيويّة المتوهّجة، ونفتقد من تجارب الإنسان كلّ ما لا يُحشر في قوالب الهندسة. فكان أن ظلّت مسألة التجديد، بعد الحرب الثانية، كما كانت من قبل، محاولة يجب أن تستهدف تحطيم البناء القديم، وكسر العبارة التقليديّة، وردّها إلى الواقع، وهدم السور القائم بين الشعر والحياة، والتعبير عن تجربة الإنسان في واقع بلادنا وعصرنا، ثمّ النفاذ عبر ذلك إلى تجربة الإنسان في كلّ عصر.

س ـ والشعر في لبنان بعد الحرب العالميّة الثانيّة، وهذه الضجّة حول قصيدة النثر؟

ج ـ أودّ أن أتحدّث أوّلاً عن ثقافة الشعراء، ثمّ أردف الكلام على نتاجهم الشعريّ. وأبرز ما يلفت النظر في ثقافة الشعراء الجدد، أو الذين حاولوا أن يتجدّدوا، أنّ تلك الآفات التي ضربت ثقافة سابقيهم قد امتدّت إلى ثقافتهم وشاعت فيها على مجال أوسع وأرهب. فإنّهم ـ باستثناء القلّة منهم ـ يكتبون بلغة لا يحفلون بها، ولشعب انفصلوا بهمومهم عن همومه، ويلتصقون من الخارج بحضارته التي يجهلونها. وهم في الوقت نفسه يذوبون صبوة إلى الحضارة الغربيّة التي يزيد جهلهم بها عن جهلهم بالحضارة العربيّة. إنّها صبوة البسيط الساذج لكلّ مبهم معقّد بعد. ولا عجب أن يلتقطوا من مجلّات الأدب الغربي، ويأخذوا بأحدث زيّ يظهر فيها ظنّاً منهم أنّ في ذلك غاية السبق والتجديد، وفاتهم أنّ التجديد بدون أصالة ذاتيّة تقليد أعمى. ولا أقسو إذا قلت إنّهم فريسة لأميّة في الفكر والفنّ وليُتْم حضاريّ جعلهم عرضة للانطباع بكلّ وافد غريب، فتراهم لا يخرجون من رحم شاعر أوروبيّ إلّا ليدخلوا في رحم شاعر أوروبيّ آخر. ومن ثمّ كان نتاجهم معرّضاً للانفعالات المتلاحقة بالآخرين. فإذا أنت تفحّصته بدا لك طبقات ملوّنة، كل طبقة بلون، وبدت لك شخصيّاتهم كأنّها «ملفوف» متعدّد الألوان. فليس في تطوّرهم دفع من الداخل، وليس فيه نماءٌ طبيعيّ حتميّ. إنّ نتاجهم لدليل محزن على أنّ الشعر في لبنان ما يزال منفعلاً متسكّعاً وراء الشعر الغربيّ. وما دام النتاج في غالبيّته على هذا الهزال فقد انتفى معنى الفارق في الشكل، سواء أكان الشكل قصيدة منثورة أو شعراً مقفّى موزوناً».

وفي افتتاحية لـ «الآداب» بعنوان «الوجوه المستعارة» (العدد السابع، تموز ١٩٦١) نتحدّث عن زيف شعراء مجلّة «شعر» الذين كانوا ينافقون بادّعاء الانتماء إلى «عروبة» خاصّة، ولكن لا يتورّع أحدهم (أنسي الحاج) من أن يصف «العروبة» الأخرى بأنّها «دودةٌ وحيدة»، ونستشهد بأبيات لخليل حاوي الذي انفصل عنهم بسبب موقفهم من العروبة وتبنّيهم لموقف سعيد عقل، فهتف بمرارة:

نحن من بيروت مأساة وُلدنا
بوجوهٍ وعقولٍ مُستعاره
تولد الفكرةُ في «السوق» بغيّاً
ثمّ تقضي العمر في لفق البكاره!

على أنّ موقف خليل حاوي ممّا يسمّى «قصيدة النثر» اتّضح جليّاً في كثير من تصريحاته ومقابلاته[1] وفيها يركّز على المقوّم الأساسي في الشعر العربي، وهو الإيقاع الذي تفتقر إليه «قصيدة النثر» فتفقد معظم الأهميّة والقيمة. وهذا الموقف يتطابق كلّ التطابق مع موقف مجلّة الآداب التي ترى أنّ ما يسمّى «قصيدة النثر» قد تكون نصوصاً جميلة، نشرت المجلة منها سابقاً بعض النماذج، ولكنّها لا يمكن أن تسمّى شعراً!

(١) أنظر المقابلة الهامّة المنشورة في هذا العدد ملحقة بمقال الدكتورة ريتّا عوض.

الكتابة ضدّ الكتابة

الدكتور عبد الله محمد الغذامي

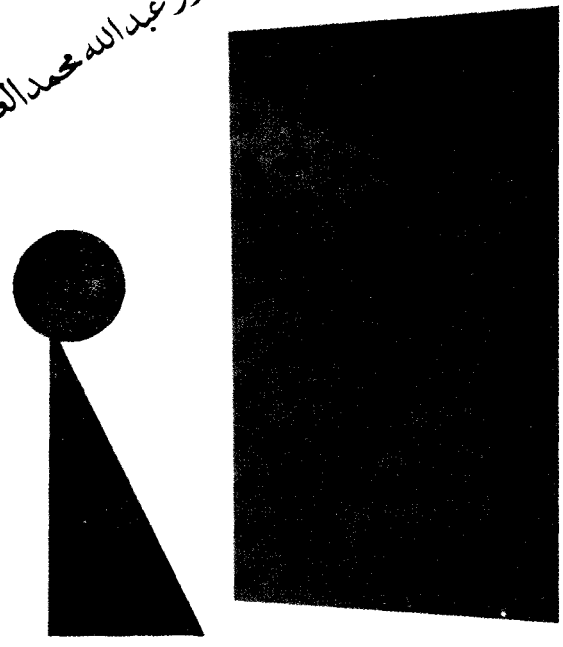

الكتابة عمل تحريضي، يحرض الذات ضدّ الآخر، وفي الوقت ذاته هي تحريض الآخر ضدّ الذات... إنها الكتابة الهدف والمنطلق: منها وإليها. وليست الذات ولا الآخر إلا نصالاً تتكسر على نصال، والمنتصر الوحيد هنا هو الكتابة، فهي الباقي بعد أن يفنى الكاتب الفاعل، ويتغيّر القارىء المنفعل.

دار الآداب